

رسالة ملكية
إلى المناظرة الدولية حول « أخلاقيات البيئة وروحانياتها »

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني رسالة إلى المناظرة الدولية المنظمة بالرباط حول «أخلاقيات البيئة وروحانياتها» تلاها السيد أحمد بنسودة مستشار صاحب الجلالة في الجلسة الافتتاحية لهذه المناظرة .

وفيما يلي نص الرسالة الملكية :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ؛

إن تطور المجتمع البشري عملية متواصلة لم تتوقف منذ ظهور الإنسان على كوكب الأرض ؛ ذلك أنه بفضل مهارة الإنسان اليدوية وحاسة الملاحظة عنده، وبفضل ذكائه الفطري وقدراته المتعددة على التكيف والابتكار، استطاع أن يتدرج بنجاح في مدارج التطور في أصعب الظروف وأشد الأحوال البيئية تطرفا، وبفضل سيطرته على الطاقة، استطاع تغيير وجه كوكب الأرض وسبر أغوار البحار والمحيطات والشروع في غزو الفضاء، بل وحتى اختراق أسرار المادة بعبقريته في العلوم البيولوجية ؛ إلا أن تأثير نشاط الإنسان أصبح اليوم من الضخامة والتعقيد بحيث أصبحنا نخشى أن يخل بالتوازن الدقيق للبيئة بل إننا أصبحنا نرى ونسمع ما يبرر مخاوفنا هذه من تلويث واسع النطاق يهدد الحياة على الأرض وفي البحار والأنهار والمحيطات والأجواء ويمزق طبقة الأوزون الواقية للانسان .

ورغم الخطوات العملاقة التي حققها الإنسان عبر آلاف السنين في المجال العلمي والتقني، فإنه يبدو أن القيم الجوهرية للروح البشرية لم يطرأ عليها تغيير كبير، بل إنه يبدو أن الجنس البشري في حاجة ماسة إلى التذكير الدائم بأن روحه قبس من نور الله وأن عليه أن يرتفع بعقله وقلبه عن ماديته إلى الملكوت الأعلى .

وسيبقى مصير الانسان وحضارته معلقا على احترامنا لعدد من النواميس الأخلاقية التي أقرتها جميع التوجيهات الدينية الكبرى التي تستقي من نبع الوحي الإلهي . وليس لهذه التوجيهات الأخلاقية حدود جغرافية، فهي تشمل في نفس الوقت الانسان والعالم المحيط به بما فيه الحي والجماد وتحتويهم ككل طبيعي جدير بالتقديس لدلالته على عظمة الخالق .

فاحترام بيئتنا الطبيعية إذن ليس مشكلا ماديا فحسب، ولكنه في الواقع ضرورة أخلاقية تتجاوز جميع الحواجز المكانية والزمانية، والحفاظ على البيئة الإنسانية لا يمكن فصله عن التأمل العميق في واجبات وحقوق إنسان اليوم والغد .

واستنادا إلى هذا الاقتناع لا يمكن تصور سياسة بيئية لا تدخل في حسبانها التنمية، ذلك لانه من الضروري إشباع الحاجات الماسة لشعوب عصرنا، لكي تستطيع هذه الشعوب أن تستخلص من كدها ثروات كافية لضمان حياة كريمة تشجع على النمو الاجتماعي والإحساس بالمسؤولية الفردية دون الأضرار بالمصالح المشروعة للأجيال القادمة .

ولا نذكر المسؤولية الفردية دون أن نتطرق إلى المشكل الديمغرافي الذي لم يعد خفيا، إنه من

أسباب اختناق البيئة وتلفها. فتزايد السكان الذي يشهده كوكبنا حاليا والذي هو بمثابة انفجار بطيء. أصبح يهدد الحياة على الأرض بشكل لم يسبق له مثيل إلا الطوفان. ويمكننا أن نتخيل مع علماء الاجتماع كيف أن مساحات المدن سوف تتسع على حساب المناطق الخضراء، وكيف سيزداد الضغط على الماء وتجهد التربة لإنتاج المزيد من الطعام وكيف ستختفي الغابات ـ رئة كوكبنا ـ وتستنزف ثروات البحار الى ما يصحب اكتظاظ المدن من تدهور أحوال الصحة البدنية والنفسية، وانحطاط القيم الأخلاقية واستفحال الأوبئة والانحراف والجريمة وانعدام الأمن فتفقد الحياة طعمها والناس حرصهم عليها. إلى جانب أن الدول حين تضيق درعا بسكانها فإنها تلجأ إلى الحروب العدوانية ضد جيرانها لتخفيف الضغط وتوسيع المجال الحيوي.

فعلينا إذن أن نأخذ إنذار علماء الاجتماع بعين الجد وروح المسؤولية حتى لا نترك لأجيالنا القادمة كوكبا ميتا أو محتضرا مشرفا على الفناء.

ورغم أننا متفائلون بطبعنا فإن تفاؤلنا لا ينبغي أن يتحول الى تواكل، بل علينا أن نعمل بواقعية وجد لصنع مصوغات ذلك التفاؤل، ونهيء أسباب الوقاية حتى لا تأخذ الكارثة المبادرة من ايدينا ولات حين مناص.

لكل هذا يجب أن تضمن المخططات المرسومة توازنا حيويا ذكيا بين الحاجات العملية لعصرنا، وبين الهشاشة التي لا محيد عنها للأنظمة الفيزيائية والبيولوجية التي يتكون منها البناء الأساسي لبيئتنا.

ويدخل هذا التطور في إطار شراكة نزيهة مع بقية عناصر البيئة الطبيعية، فحماية محيط حياتنا في الحقيقة ليس مهمة جماعة من الاختصاصيين فقط، ولكنها مسؤولية مادية ومعنوية يجب أن يتحملها كل واحد منا، فهي ليست مجرد امتثال لمقتضيات تنظيمية بقدر ما هي مسألة سلوك، وليكن هذا السلوك صادرا عن الشعور بالمسؤولية يجب أن تضرب جذوره في تربية راسخة في القيم الاخلاقية والروحية.

وهذا في رأينا ما يعطي لأشغال المناظرة ــ التي تبدأ اليوم ـ بعدا إيجابيا خطيرا، فهي تضع مشكلة مجموع العلاقات بين الإنسان ومحيطه على الأساس الوحيد الذي يسمح بشمول الرؤية؛ وهو المسؤولية الأخلاقية للمخلوق البشري المفكر والذي حظى من الله تعالى بامتياز العيش في عالم بديع، ولكنه في نفس الوقت عالم هش البنية، ومن واجب الإنسان أن يشكر الله على اختياره للعيش في هذا الكوكب باحترام رهافته والحفاظ عليه كما خلقه الله وكما أراد له أن يبقى نقيا جميلا.

وخير ما نختم به هذه الرسالة قوله تعالى في كتابه العزيز: «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين». صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

24شوال 1412هـ موافق 28 أبريل 1992م